



الفصل السابع

الكناية التعريضية

الفصل السابع

الكناية التعريضية

الكناية التعريضية لون من ألوان الكناية " فالكناية تنقسم إلى تعريض وتلويح ورمز وإيماء وإشارة، ومساق الحديث يحسر لك اللثام عن ذلك " (١). والتعريض هو " اللفظ الدال على الشيء من طريق مفهوم لا بالوضع الحقيقي، ولا المجازي، فإنك إذا قلت لمن تتوقع صلتك ومعروفه بغير طلب: والله إنني لمحتاج، وليس في يدي شيء. وأنا عريان والبرد قد أذاني، فإن هذا وأشباهه تعريض بالطلب، وليس هذا اللفظ موضوعاً في مقابلة الطلب لا حقيقة ولا مجازاً، إنما دلّ عليه من طريق المفهوم، بخلاف دلالة اللمس على الجماع " (٢). فالتعريض هو أن يطلق الكلام، ويشار به إلى معنى آخر يفهم من السياق (٣) وقرائن الأحوال، وما يشير إلى هذا قوله - تعالى -: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَمْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ (٤). والتعريض في الخطبة هو: أن يقول راغب الزواج للمعتدة بعد انتهاء عدتها، مثلاً: عسى الله أن يهين لي زوجة صالحة. أو: لعل الله أن يرزقك بعلًا صالحاً وإن النساء لمن حاجتي وأشباهه من الكلام (٥). فهو إمالة الكلام إلى عرض يدل على الغرض (٦). وهو رغبته فيها، والزواج ليس مدلولاً لهذه الألفاظ حقيقة ولا مجازاً، لأن المتكلم ذكر شيئاً دلّ به على شيء لم يذكره، ومن هذه الناحية اختلف التعريض عن الكناية، لأن الكناية ذكر الشيء بغير لفظه الموضوع له كقولنا: طويل النجاد لطول القامة، وكثير الرماد للمضيف. والتعريض: " أن نذكر شيئاً ندل به على شيء لم تذكره كما

(١) مفتاح العلوم، ص ١٦٠. وينظر: الإيضاح: ٢ / ٤٦٦.

(٢) المثل السائر: ٣ / ٥٦. وينظر: الطراز: ١ / ٣٩٧. ٣٩٨. ويتنظر: الزهراني في علوم القرآن: ٣١١ / ٢.

(٣) جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبدیع، أحمد الهاشمي، ص ٣٥٠.

(٤) سورة البقرة، من الآية: ٢٣٥.

(٥) ينظر: الكناية والتعريض، للتعالي، ص ٥٧. ويتنظر: القوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ١٣٤. وينظر: علم البيان في الدراسات البلاغية، ص ٢٧٦.

(٦) الكشف: ١ / ٣٧٣. والمنتخب من كنایات الأدباء وإشارات البلغاء، ص ٥٦، ٥٧.

يقول المحتاج للمحتاج إليه: جئتكَ لأسلم عليك، ولأنظر إلى وجهك الكريم^(١)، وهو يعرض بطلب الصدقة.

ورغم هذا الافتراق بين الكناية والتعريض فإنهما يعدّان من طرق الفن الكناني، لأنهما يدخلان في إطار عام وهو الإشارة إلى المعنى المراد من بعد عن طريق المعنى القريب الذي يدل عليه ظاهر اللفظ لعلاقة بينهما^(٢)، هي علاقة اللزوم في الكناية، وعلاقة يستدل عليها العقل في قرائن الأحوال ومقتضيات السياق في التعريض.

وقد توافر القرآن الكريم على هذا النوع من الكناية التعريضية التي تمثل بالإيجاز في التعبير عن المعاني والأفكار التي تهدف إليها، فهي تحقق معناها أولاً ثم تصل إلى الغرض الذي ترمي إليه عن طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال كما ذكرنا من غير أن تذكر الطرف المقابل المعروض به، وبالعَدول من التصريح إلى التعريض يكون وقع المعنى في النفس مؤثراً وأقدر على إحداث الاستجابة النفسية المناسبة، وذلك بسبب التلميح إلى المعنى المراد نقله والإشارة إليه من عرض الكلام وجانبه ونقل المتلقي إليه بعد معاناة وتفكير، ومن هنا فإن التعريض الذي لا يقع إلا في التركيب على خلاف أقسام الكناية الأخرى التي تقع في المفردة والتركيب^(٣)، يفيد القول بلاغة تفوق بلاغة أنواع الكناية الأخرى وذلك لأنه يشير بخفاء ومن دون وسائط ولوازم إلى معنى بعيد، مع إقراره في نفس السامع من طريق سياق القول ومقتضياته.

وفيما يأتي نستعرض الآيات القرآنية التي احتوت كنايات تعريضية، ثم نحاول تحليلها وبيان خصائصها وأثرها في سياق الآية الكريمة ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً.

إنما يتلذذ أولوا الألباب:

يستعمل القرآن هذا التعبير في موطنين على سبيل التعريض بالكافرين، أحدهما قوله تعالى:- ﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْمُنُّ كَمْ هُوَ أَمْسَحُ إِنَّمَا يَنْدَرُكُونَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾^(٤)

قوله - تعالى :- ﴿إِنَّمَا يَنْدَرُكُونَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ تعريض بالكافرين، فليس الغرض من هذا القول - كما يقول عبد القاهر الجرجاني - أن يعلم السامعون ظاهر معناه، ولكن أن يتم الكفار

(١) ينظر: الكشف: ١ / ٣٧٢-٣٧٣.

(٢) ينظر: الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية، ص ٢٢٩.

(٣) ينظر: المثل السائر: ٣ / ٥٧. وينظر: البلاغة العربية بالمعاني والبيان والبدیع، ص ٢٤٤.

(٤) سورة الرعد، الآية: ١٩. وينظر: سورة الزمر، الآية: ٩.

وإن يقال: إنهم من فرط العناد ومن غلبة الهوى عليهم في حكم من ليس بذئ عقل وإنكم إن طمعتم منهم في أن ينظروا ويتذكروا كنتم كمن طمع في ذلك من غير أولي الأدبَاب " (١). فالمعنى الظاهر للكناية التعريضية معلوم حكمه لا يجهله أحد، أي المؤمنون أصحاب القلوب

الواعية التي تنفع بما تری، وتعلم أن الذي أنزل الله هو الحق فتتبعه. ومن هنا تأتي الموازنة بين الفريقين: المؤمنين والكافرين على التقابل ليتجلى المعنى ويعمق في الحسن والـ

﴿أَمَّنْ يَمْلِكُ أَنَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَمَّا كُنْ هُوَ أَعْمَى﴾ والاستفهام بالهمزة يفيد إنكار تشابه حال الفريقين، وهو تشبيه مستنكر، وهو عميق في دلالاته وحقيقته، فالمؤمنون هم أصحاب البصر والبصيرة على خلاف الكافرين. كما يخرجهم التعبير الاستعاري التصريحي القائم في بنيته على التشبيه ﴿كُنْ هُوَ أَعْمَى﴾ فشبه الكافر بالأعمى وذلك يجمع عدم البصر على سبيل الاستعارة التصريحية. والكافر ليس أعمى في الحقيقة، وإنما هو أعمى بهذا التصوير الاستعاري بمعناه الجديد الذي يصوره القرآن، إذ العمى عمى القلب والبصيرة، كما قال - تعالى -: ﴿فَأَنبَأَهَا لَا تَمْسَى الْأَبْصَرُ وَلَكِن تَمْسَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (٢). فالكفر عمى والكافر أعمى لأنه عطل وسائل إدراكه ومعرفته عن العمل في ما خلقت له فهو لا يرى العلم الذي أنزل له الله وهو الحق الذي يعلّمه أو لو الأدبَاب شأنه في ذلك شأن الأعمى الذي لا يميز الأشياء.

وهذه الاستعارة القائمة في بنيتها على التشبيه تصعد معنى التعريض المستفاد من ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ الذي جاء بأسلوب القصر بإمضاء، حيث قصر صفة التذكّر على الموصوفين بـ ﴿أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ وهم المؤمنون لا تتعدى إلى غيرهم وهم الكافرون المعرض بهم فهم لا يتذكرون ولا يتدبرون الحق الذي أنزل له الله، فالقصر "ليبيان الواقع وحصر التفكير والتذكر المستقيم في أولي الأدبَاب والعقول الخالصة" (٣).

(١) دلائل الإعجاز، ص ٣٣٣ - ٣٣٤. وينظر: البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣١٤. وينظر: من بلاغة النظم العربي دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني، د. عبد العزيز عرفة: ٢ / ٦١. وينظر: المعاني في ضوء أساليب القرآن، د. عبد الفتاح لاشين، ص ٣٠٠.
(٢) سورة الحج، من الآية: ٤٦.
(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٦ / ٥١٤.

وبذلك نثال هذه الكناية التعريضية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ من الكافرين عن طريق مفهوم سياق الآية ونذمتهم وتخرجهم في حكم من ليس له بصير وعقل من غير أن تصرح بتكرهم.

ونتكرر هذه الكناية التعريضية في موطن آخر معرضة بالذين لا يعلمون (الكافرين)، بعد أن تثبت للمؤمنين الذي يعلمون ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ سلوكاً عملياً شاكرآ لله، فعلمهم يتخذ مجاله وصورته الشاكرة العاملة، وذلك في قوله - تعالى - ﴿أَمَّنْ هُوَ قَنِيتٌ أَنَاةً أَلْبَلٌ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُوا رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (١).

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ تعريض بالكافرين بعد أن قررت المعنى الظاهر المعروف وهو إثبات صفة التذكر للمؤمنين أولي الأبواب دون غيرهم على وجه التخصيص. ويبرز سياق الآية هؤلاء المؤمنين الذين يعلمون ويعملون بمقتضى علمهم المستقر في النفوس والقلوب بهذا السلوك الخاشع: أثناء الليل، والسجود والقيام، والحذر من عذاب الآخرة، ورجاء الرحمة من ربهم بهذا الجهد العامل الشاكر الذي يبذله هؤلاء العالمون العاملون. والكافرون المعرض بهم يجهلون الحقيقة التي من أجلها خلَقوا، فهم لا يعلمون فلا يستوي حالهم مع هؤلاء المؤمنين في صورتهم الوضيئة ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ والاستفهام هنا إنكاري ينفي أن يستوي حال الفريقين ويقرر واقعاً ناصعاً في دلالة المجازية فهو لا يحتاج إلى جواب، لوضوح حال الفريقين، ولكنه استفهام يهدف إلى إقرار حقيقة وتوكيدها، ويقرر ويعرض بالكافرين الذين لا يعلمون ازاء أولئك العالمين العاملين، والتقابل على سبيل التضاد من شقته تعميق حال الفريقين في الحس والذهن.

ويمكن أن يفهم التعريض في الآية من جانب آخر بالعالمين غير العاملين في دلالة العامة، قال الزمخشري: "وأراد بالذين يعلمون: العاملين من علماء الديانة، كأنه جعل من لا يعمل غير عالم. وفيه ازراء عظيم بالذين يفتقون العلوم، ثم لا يقتنون ويفتقون، ثم يفتقون بالدنيا، فهم عند الله جهلة، حيث جعل القانتين هم العلماء، ويجوز أن يرد على سبيل التشبيه، أي: كما لا يستوي العالمون والجاهلون، كذلك لا يستوي القانتون والعاصون" (٢).

(١) سورة الزمر، الآية: ٩.

(٢) الكشف: ٩٠ / ٤.

وبذلك يستوي في دلالة التعريض الشاملة الكافرون الذين لا يعلمون ولا يعملون، والعالمون غير العاملين بما يجب عليهم من الطاعة، فهم جهلة على صعيد واحد مع الكافرين.

وفي ضوء ذلك يتجلى الأيجاز في الكناية التعريضية ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ فليس المراد منها المعنى الظاهري المعلوم وهو قصر التذكير على المؤمنين القانتين فحسب، وإنما يتجاوز ذلك إلى معنى آخر يمثل الهدف الذي تلوح به على سبيل التعريض.

وفي ضوء ذلك يمكن أن يفهم التعبير القرآني: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ على أنه كناية تعريضية، والوارد في قوله - تعالى -: ﴿وَلَا نُزِرْ وَأَزِيدُ وَزِدْ أَخْرَجْ وَلَنْ نَدْعُ ثَقُلَهُ إِلَى جِهَلِهِمْ لَا يُعْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَرَكْنَا فَاِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَلِلَّهِ الْآخِرُ ۚ﴾^(١)

فالتعبير القرآني ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ يتجاوز معناه الظاهر الذي يدل عليه إلى التعريض بالذين ليس لهم هذه الخشية، قال الزركشي: "المقصود التعريض بدم من ليست له هذه الخشية، وأن يعرف أن لفرط عناده كأنه ليس به أنن تسمع، ولا قلب يعقل، وأن الانذار له كلاً انذار، وأنه قد أنذر من له هذه الصفة، وليست له"^(٢).

فالكناية التعريضية تنال من الكافرين على نحو خفي لطيف وكاشفة عن حالهم الذي تساوي عدهم الانذار وعدم الانذار لفرط عنادهم وتصميمهم عليه جهلاً وضلالاً، فهم لم يفيدوا من الانذار لأنهم بمنزلة من لا يسمع ولا يعقل فقد عطّلوا لديهم وسائل الحس والادراك، فلم يتأثروا بالإنذار، ولم يستجيبوا له، فهم لا يؤمنون ولا يخشون ربهم على خلاف المؤمنين الذين أفادوا ممّا أنعم الله عليهم من سمع وبصر وأفدّة فأفادوا بالانذار واستجابوا فكان دينهم الخشية من الله ربهم.

(١) سورة فاطر، الآية: ١٨، وينظر: سورة الأنعام، الآية: ٣٦.

(٢) البرهان في علوم القرآن: ٢ / ٣٢٤.

فَسَلُّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُوْنَ :

ترد هذه الكناية التعريضية على لسان سيدنا ابراهيم عليه السلام يعرض بها بقومه وبما كانوا يعبدون حين كسر أصنامهم وذلك في قوله - تعالى - ﴿ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا يَا إِبْرَاهِيمَ يَا بَرُوسُ ﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿ فَرَجَعُوا إِلَيْ أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ ثُمَّ لَكُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ حَلَمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿ (١)

الكناية التعريضية قوله - تعالى - ﴿ قَالُوا بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَتَلَّوْهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴾ ، والبادي من هذه الكناية التعريضية أن سيدنا ابراهيم عليه السلام لم يرد بها أدباً نسبة الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما أراد أدباً الفعل له بالأسلوب التعريضي كي يلزمهم الحجة والبرهان على نحو من الاستهزاء بهم والتبكيت. قال الزمخشري: " هذا من معاريض الكلام ولطائف هذا النوع لا يتغلغل فيها أذهان الراضة من علماء المعاني والقول فيه أن قصد ابراهيم (صلوات الله عليه) لم يكن إلى أن يذهب الفعل الصادر عنه إلى الصنم، وإنما قصد تقريره لنفسه وأثباته لها على أسلوب تعريضي يبلغ فيه غرضه من إلزامهم الحجة وتبكيتهم، وهذا كما لو قال لك صاحبك وقد كذبت كتاباً بخط رقيق وأنت شهير بحسن الخط: أنت كتبت هذا وصاحبك أحمى لا يحسن الخط، فقلت له: بل كتبتك أنت، كان قصدك بهذا الجواب تقريره لك بهذا الاستهزاء به، لا نفيه عنك وأثباته للآحمى. لأن أثباته - والأمر دائر بينكما للعاجز منكما - استهزاء به وأثبات للقادر " (٢).

وأشار ابن الأثير إلى معنى آخر أبعد من الأول لهذه الكناية التعريضية بقوله: " وهو أن كبير الأصنام غضب أن تعبد معه هذه الأصنام الصغار فكسرها، وغرض ابراهيم من ذلك أنه لا يجوز أن يعبد مع الله - تعالى - من هو دونه، فإن من هو دونه مخلوق من مخلوقه، فجعل إحالة القول إلى كبير الأصنام مثلاً لما أراده " (٣) وما رآه ابن الأثير يسلك في التمثيل، فيعمق الكناية.

(١) سورة الأنبياء، الآيات: ٦٢-٦٥.

(٢) الكشف: ٩٨/٣، وينظر: المثل السائر: ٧٢/٣، وينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١١/٢.

(٣) المثل السائر: ٧٢/٣، ينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ١٣٤، ومن بلاغة القرآن: ٢٢٨.

وفي كلا المعنيين فإن إبراهيم عليه السلام يعرض بهم وبآلهتهم التي يعبدونها من دون الله عن جهل وظلم، وتقليد أعمى لأبائهم (١) يسيطر على أفكارهم ونفوسهم ويوجه سلوكهم فيصبحوا بلا عقل ولا تفكير، لأنهم يرون بعقول أبائهم حتى ولو علموا بأن آباءهم جاهلون. من هنا يأتي التعريض بهم وبآلهتهم أسلوباً بليغاً حياً يعمل على إيقاظ نفوس قومه وقلوبهم لإزالة غشوة التقليد الأعمى الذي غطى على الحقيقة التي غفلوا عنها. فالتعريض يحطم تلك الأغلال النفسية التي راثت على قلوبهم لتتجلى لهم الحقيقة، وليرد القلوب إليها والنفوس، وقد صور السياق لحظة رجوعهم إلى نفوسهم متدبرين متفكرين حين ألزمهم الحجة ﴿فَرَجَعْنَا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَفَالَوْأَ إِنتُمْ أَتَّالِفُونَ﴾ أي لسا ألزمهم الحجة وأخذ بمخالفتهم، رجعوا إلى أنفسهم متدبرين ومتفكرين فقالوا: أنتم الظالمون على الحقيقة لا من ظلمتموه حين قلتم: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الْفَالِغِينَ﴾ (٢) فهم يدينون أنفسهم وما هم فيه من سخف، وما في عبادتهم من ظلم - حين رجعت أنفسهم إلى الحقيقة الناصعة - إلا أنهم ارتدوا تلك الردة النفسية كما يصورها القرآن بالأسلوب الكنائي المجسد، ارتداد نفوسهم إلى عبادة الأصنام ﴿ثُمَّ لَكُمْ سَؤَالٌ هَلْ رُؤِيسُهُمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ﴾. فالكناية ﴿ثُمَّ لَكُمْ سَؤَالٌ هَلْ رُؤِيسُهُمْ﴾ حركة مادية غليظة تشير إلى ذلك المعنى النفسي وهو انقلابهم من الحقيقة الناصعة وهي بطلان عبادتهم وشركهم، وقد استشعروها لحظة عندما ألزمهم سيدنا إبراهيم عليه السلام الحجة والبرهان، انقلبوا إلى الشرك والمجادلة عن أصنامهم بالباطل والمكابرة، قال الزمخشري: "نكسته: قلبته فجعلت أسفله أعلاه. وانتكس: انقلب، أي: استقاموا حين رجعوا إلى أنفسهم وجاءوا بالفكرة الصالحة، ثم انتكسوا وانقلبوا عن تلك الحالة، فأخذوا في المجادلة بالباطل والمكابرة، وأن هؤلاء - مع تقاصر حالها عن حال الحيوان الناطق - آلهة معبودة، مضرة منهم، أو انتكسوا عن كونهم مجادلين لإبراهيم عليه السلام مجادلين عنه، حين ذفوا عنها القدرة على النطق" (٣) ويمكن أن نفهم الكناية ﴿ثُمَّ لَكُمْ سَؤَالٌ هَلْ رُؤِيسُهُمْ﴾ على الحقيقة، أي تكسوا رؤوسهم حقيقة، فتكون بذلك كناية عن خجلهم وانكسارهم أمام الحقيقة التي بهتهم بها إبراهيم عليه السلام. وقد أشار الزمخشري إلى هذا الفهم بقوله: "أو قلبوا على رؤوسهم حقيقة، لفرط اطرأقهم خجلاً وانكساراً وانحزلاً مما بهتهم به إبراهيم عليه السلام فقد

(١) ينظر: سورة الشعراء، الآية: ٧٤.

(٢) ينظر: الكشاف: ٩٨ / ٣، وقولهم هو الآية ٥٩ من السياق نفسه.

(٣) الكشاف: ٩٨ / ٣.

أحاروا جواباً إلا ما هو حجة عليهم " (١) فهي الحجة القوية التي يلزمهم إياها. وفي التوجيهين للكناية ينكشف معنيان تشير إليهما على نحو جلي:
أولهما: مجادلة هؤلاء القوم لتبنيهم إبراهيم بالباطل والمكابرة على الرغم من استشعارهم الحقيقة في قرارة أنفسهم.
وثانيهما: عدم استنادهم إلى حجة يجادلون بها، فليس لهم إلا الإطراق، خجلاً وانكساراً أمام الحجة الواضحة والبرهان المبين.

نبا الخصم:

يأتي هذا التعبير ضمن سياق تعريض بسيدنا داود عليه السلام وهو قوله - تعالى -: ﴿وَعَلَّ أَنْتَ نَبُوءَ الْخَصَمِ إِذْ سَوَّرُوا الْيَحْرَابَ﴾ (٢) إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُدَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصِمَانِ بَيْنَ بَعْضِنَا عَلَى بَعْضٍ فَاثْمَرَ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا نُسْطِطُ وَأَهْبِئْنَا إِلَى سَوَاءِ الْأَصْرَاطِ (٣) إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَاحِدَةً فَقَالَ أُكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٤) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْيمِكَ إِلَى نَجْمِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْفُلُطُلِ يُبْنَى بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُدُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ (٥) فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآدٍ (٦) بِئْسَ دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَادْعُ إِلَى النَّاسِ إِلَى الْهَدَىٰ فَمَن يَعْبُدُكُم مِّن دُونِ اللَّهِ فَإِن يَعْصُوا لَكُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَإِنَّ أَلْفَ بَنِي آدَمَ يَفْعَلُونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ إِنَّمَا سَأَلْتُمُومَ الْحِسَابِ (٧)

من خلال هذه القصة يبرز التعريض بالنبي داود عليه السلام والتعريض هنا وسيلة سبئية مؤثرة، فضلاً عن إيجازه، فهو " أبلغ في التوبيخ، من قيل أن التأمل إذا أداه إلى الشعور بالمعروض به، كان أوقع في نفسه، وأشد تمكناً من قلبه، وأعظم أثراً فيه، وأجلب لاحتشامه وحيائه، وأدعى إلى التنبه على الخطأ فيه من أن يبادره به صريحاً، مع مراعاة حسن الأدب بترك المجاهرة " (٣).

وقد ذهب بعض التفسير في تفسير هذه الآيات إلى ما يجانب الصواب جرياً مع الأسرائيليات في التفسير بما لا يتلاءم مع طبيعة النبوة (٤).

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٩٨.

(٢) سورة ص، الآيات: ٢١ - ٢٦.

(٣) الكشاف: ٤ / ٦٣.

(٤) ينظر مثلاً: الكشاف: ٤ / ٦٢.

والنظر في هذه الآيات يلحظ:

- أن تسوّر الخصم المحراب والدخول على داود عليه السلام قد تمّ في صورة غير طبيعية.

ابن عباس: "إن داود عليه السلام جزأ زمانه أربعة أجزاء: يوماً للعبادة، ويوماً للقضاء، ويوماً للاشتغال بخواص أموره، ويوماً يجمع بني إسرائيل فيعظّمهم ويديّهم، فجأه في غير يوم القضاء ففرع منهم، ولأنهم نزلوا عليه من فوق، وفي يوم الاحتجاب، والحرس حوله لا يتركون من يدخل عليه" (١). فتسوّرهم المحراب ودخولهم عليه كان بطريقة عجيبة ممّا سبّب فرعاً للذبي داود ﴿فَفَزَعَ مِنْهُمْ﴾ والذي يؤكد كونه من الأنبياء العجيبة الاستفهام بـ (هل) في قوله: ﴿وَعَلَّ أَنْتَكَ نَبْؤُا الْخَصْمِ﴾ فظاهره الاستفهام ومعناه الدلالة على أنه من الأنبياء العجيبة التي حقها أن تشيع ولا تخفى على أحد، والتشويق إلى استماعه " (٢). وتسوّر المحراب بهذه الطريقة يوحي بأن الخصم ليس من البشر بل هما من الملائكة، قال الزمخشري: "تصدوا سورة ونزلوا إليه، والسور: الحائط المرتفع.. روي أن الله - تعالى - بعث إليه ملاكين في صورة إنسانين، فطلبا أن يدخلوا عليه، فوجده في يوم عبادته، فسنعهما الحرس فتسوّروا عليه المحراب، فلم يشعر إلا وهما بيمن يديه جالسان" (٣). فضلاً عن أن طريقة حوارهما مع النبي داود يؤكد بأنهما من الملائكة ﴿... فَاتَّخَذَا بِأَلْحَقٍ وَلَا نُطْلِقُ﴾ أي "ولا تخرج أي ولا تبعد عن الحق، وهي مجاوزة الحد وتخطي الحق" (٤).

- في سياق القصة رمز حيوي يشير إلى ظلم الإنسان لأخيه الإنسان إلا الذين آمنوا

وعملوا الصالحات ﴿قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَجِيكِ وَإِنَّ كَيْدَكَ مِنْ لَقْلَقَاتِ كَيْبِ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.

- يلاحظ من سياق القصة أن سيدنا داود عليه السلام قد حكم لأحد الخصمين وهو الذي أدلى

بقوله وحجته: ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَجْمَةً وَلِي نَجْمَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفَيْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ دون أن يمنح الخصم الآخر فرصة للدلاء بقوله وحجته - وهو النبي الملك الذي ولّاه الله أمر

(١) الكشف: ٦٣ / ٤.

(٢) المصدر نفسه: ٦٣ / ٤.

(٣) الكشف: ٦٣ / ٤.

(٤) المصدر نفسه: ٦٣ / ٤.

الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل. ومن هنا يتجلى امتحان النبي داود وابتلاؤه فيعرض به السياق تعريضاً مؤثراً، لأنه لم يبين الحق قبل إصدار الحكم، على الرغم من أن الخصم " قد اختاراً أن يعرضاً عليه القضية في صورة صارخة مثيرة، ولكون القاضي عليه ألا يستأثر، وعليه ألا يتعجل. وعليه ألا يأخذ بظاهر قول واحد قبل أن يمنح الآخر فرصة للإدلاء بقوله وحجته، فقد يتغير وجه المسألة كله، أو بعضه، ويتكشف أن ذلك الظاهر كان خادعاً أو كاذباً أو ناقصاً" (١). والتعقيب القرآني بعد ذلك يؤكد هذا المعنى التعريضي ويقويه، ويكشف عن طبيعة تلك الفتنة التي ابتلاه الله بها ﴿فَقَرَّبْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَّعَآبٍ﴾ ﴿يٰۤاٰدٰمُ اِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِى الْاَرْضِ فَاَحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ ...﴾. كما يحلى من هذه القصة التي عرضت بسـ

القضاء وأهميته في حياة الناس.

ما كان لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ:

ترد هذه الكناية معرضة بالمسلمين على ما فعلوه في شأن أسرى معركة بدر، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿مَا كَانَتْ لِنَبِيِّ أَنْ يُكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَصَ الذُّلَّةِ ۖ وَأَلَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ۖ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (٢)

والإثخان هو " كثرة القتل والمبالغة فيه، من قولهم: أثخنه الجراحات إذا أثبتته حتى تثقل عليه الحركة. وأثخنه المرض إذا أثقله من الثخالة التي هي الغلظ والكثافة، يعني حتى يذل الكفر ويضعفه بإشاعة القتل في أهله ويعز الإسلام ويقويه بالإستيلاء والقهر. ثم الأسر بعد ذلك، ومعنى ﴿مَا كَانَتْ﴾ ما صح له وما استقام، وكان هذا يوم بدر" (٣).

فالإثخان بالمشركين في المعركة هو الذي كان يجلب على المسلمين أن يفعلوه وذلك لإضعاف قوة المشركين وكسر شوكتهم وبخاصة أن معركة بدر هي أول معركة مع المشركين، وأن المشركين كانوا كثرة والمسلمين قلة، فكان ينبغي على المسلمين أن ينقصوا عدد المحاربين المشركين بالقتل والمبالغة فيه لا أن يأسروهم ويستبقوهم ويطلقوهم بالقدية كما حدث، فعرض الله بالمسلمين على فعلتهم، وكشف عن دافع ذلك وسببه: ﴿

(١) في ظلال القرآن: ٧ / ٩٧.

(٢) سورة الأنفل، الآية: ٦٧.

(٣) الكشف: ٢ / ١٨٤. وينظر: أساس البلاغة، ص ٤٣ (ثخن).

يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ، أي: حطامها، سمي بذلك لأنه حدث قليل الالبث، يريد الفداء **﴿وَاللّٰهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾** يعني ما هو سبب الجنة من اعزاز الاسلام بالإتخان في القتل " (١).

وفي ذلك تقابل بين **﴿عَرَضَ الدُّنْيَا﴾** وهو أخذ الأسرى واطلاقهم بالفداء وبين ثواب **﴿الْآخِرَةِ﴾** الذي يريده الله للمسلمين والذي يسميه الاتخان في قتل المشركين الذي فيه اعزاز للمسلمين ونصرهم، قال الزمخشري: "والله يريد عرض الآخرة على التقابل، يعني ثوابها **﴿وَاللّٰهُ عَزِيزٌ﴾** يغلب أوليائه على أعدائه ويتمكنون منهم قتلاً وأسراً وبطلق لهم الفداء، ولكنه **﴿حَكِيمٌ﴾** يؤخر ذلك إلى أن يكثرُوا ويعزُوا وهم يعجلون" (٢) ومن شأن هذا التقابل أن يجلي ذلك المعنى الكبير الذي يجب أن يحرص عليه المؤمنون وهو أن يريدوا ما يريد الله لهم، وهو الباقي الذي لا ينفد وفيه عزهم في الدنيا والآخرة، وأن يتجردوا من عرض الدنيا القليل الذي ينفد وفيه ذلهم إذ يشدهم إلى الأرض ويؤخرهم عن الإنطلاق.

المثل بامرأة نوح وامرأة لوط:

يعرض القرآن من خلال هذين المثلين ببعض زوجات النبي محمد ﷺ في سورة التحريم وأولها: **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾** قد قرأ الله لكم حلة أيمانيكم **﴿وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾** ولما أسر النبي ﷺ إلى بعض أزواجه حديثاً فلما تبأت به وأظهرة الله عليه عرف بعضه وأعرض عن بعض فلما تبأها به. قالت من أنبأك هذا قال نبأني العليم الخبير **﴿إِنْ تَوَلَّوْا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾** (٣) وفي ختام السورة الكريمة يأتي المثلان على سبيل التعريض الذي يلوح بمعناه من بعيد محذراً مذكراً أشي المؤمنين (حفصة وعائشة) - رضي الله عنهما - والتعريض بأم المؤمنين حفصة أرحح (٤)، والمثل هو قوله - تعالى -: **﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتُ نُوحٍ وَامْرَأَتُ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاسِخِينَ﴾** وَصَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ

(١) الكشاف: ٢ / ١٨٥.

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ١٨٥.

(٣) الآية: ٦٠. ومما روي في أسباب النزول: "دخل رسول الله ﷺ بمارية القبطية سريره، بيت حفصة فجاهت فوجنتها معه فقال يا رسول الله في بيتي دون بيوت ذنالك، قل: فدأها علي حرام أن

أسمها يا حفصة واكتمى هذا علي فخرجت حتى أتت عذشة فأخبرتها فانزل الله **﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾**

الآيات. ينظر: لآب النقول في أسباب النزول، ص ٧٤٥-٧٤٦.

(٤) ينظر: الكشاف: ٤ / ٤٥٨.

Yes.

رسول الله ﷺ، وامرأة نوح قالت لقومها: إنه مجنون، فكلاهما تظاهرتا على الرسولين الكريمين بنفاقهما وإبطانهما الكفر فكانت عقبتهما دخول النار مع الداخلين^(١).

فالمثلان في ضوء ذلك يعدان كناية تعريضية تلوح بمعناها التعريضي من بعيد والذي يفهم عن طريق الإشارة المهدبة التي تصون النفس الانسانية المخاطبة من الأذى وبخاصة - وهي تعرض بأبي المؤمنين فتحفظ لهما مقامهما الكريم في بلوغ المراد. وهذا من خصائص التعريض في القرآن الكريم فهو من " الأساليب البيانية يحتمل الأدب القرآني، وتدعو إليه لغته المهدبة، تقويماً للخلق، وصيانة النفس من العبث والغبط والآثرة المؤذية^(٢).

يا أخت هرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً:

ترد هذه الآية الكريمة على سبيل التعريض بالسيدة الطاهرة مريم (عليها السلام) من قبل قومها وذلك في سياق سيدنا عيسى عليه السلام، قال - تعالى -: ﴿فَأَنْتَ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يُعَرِّضُ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ يتأخث هنرون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغياً^(٣).

والمعنى الظاهر القريب للآية: ﴿يَتَأَخَثُ هَنْرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأً سَوْوً وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا﴾ ، كما جاء في التفسير: " أي يا أخت الأخ الصالح أو شبيهة الرجل الرجل الصالح المشهور.. والمراد بهارون أخ لها من أبيها، وكان صالحاً، وقيل: رجل صالح مشهور في بني إسرائيل. وقيل: المراد هارون أخو موسى عليه السلام، والمراد بالأخت المشابهة والمماثل في التقوى، ما كان أبوك امرأ صاحب سوء في الأعمال والأخلاق، وما كانت أمك بغياً أي زانية. والأصل إذا كان زكياً فالغالب أن الفرع يكون كذلك، فمن أين لك هذا الولد ؟ " ^(٤).

إلا أن الآية يمكن عدها كناية تعريضية تلوح بمعناها البعيد الذي يقصده قومها على سبيل التعريض بها، على الرغم مما تحمله الآية من معنى نبيل يقرّر طهارة السيدة مريم (عليها السلام) وصلاح سيرتها يعترف به قومها، ولكن يشتم في الآية التعريض (بالزنا)، فهم لم يواجهوها صراحة بالمعنى، وإنما عرضوا بذلك تعريضاً قوي التأثير وبالغ، وذلك من خلال نفي السوء عن أبيها والبغي عن أمها، وندائها بأنها أخت هارون المشهور عندهم

(١) ينظر: الكشف: ٤ / ٥٥٨.

(٢) أصول البيان العربي، ص ١١٩.

(٣) سورة مريم، الآيتان: ٢٧ - ٢٨.

(٤) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٥ / ٣٢١. وينظر: الكشف: ٣ / ١١.

بالصلاح، فضلاً عن الاستفهام الضمني المفهوم من السياق بعد النفي (من أين لك هذا الولد الذي يفيد (التعجب) التعجب من هذا الشيء الذي جاءت به ولا يعرف مصدره، فمن خلال النفي والاستفهام يُمرّر المعنى التعريضي الذي أشاروا إليه وهو (الزنا) يتهمون به الفئة الطاهرة النقية.

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا:

ويلمّح الأسلوب التعريضي البعيد إلى المكذبين بالآخرة، وهم المحجوبون عن التبصّر بحكمة النشأة الأخرى، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ لَا تُرْجَعُونَ ﴾^(١).

والمعنى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا ﴾ أي: "عابثين، أي: ما خلقناكم للعبث، ولم يدعنا إلى خلقكم إلا حكمة اقتضت ذلك، وهي: أن نتعبدكم ونكلفكم المشاق من الطاعات وترك المعاصي، ثم ترجعكم من دار التكليف إلى دار الجزاء، فنثيب المحسن ونعاقب المسيء ﴿ وَأَنَّكُمْ لَا تُرْجَعُونَ ﴾ معطوف على ﴿ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ ﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على ﴿ عَبَثًا ﴾ أي للعبث، ولترككم غير مرجوعين " (٢). هذا هو المعنى الذي توضحه الآية وتقرّره، فحكمة البعث والنشور من حكمة الخلق، محسوب حسابها، ومقدّر وقوعها، ومدبّر غايتها، وما للبعث والنشور إلا حلقة في سلسلة النشأة، تبلغ بها كمالها، ويتم فيها تماسها، ولا ينكر الحياة الأخرى ويغفل عنها إلا الكافرون المحجوبون عن حكمة الله الكبرى، المتجلية في صفحات الكون المبنوثة في أطواء الوجود (٣). ففي الآية تعريض بهؤلاء على أغلظ وجه وأشدّه لإذكارهم هذه الحقيقة التي غفلوا عنها وحسبوا أنهم لا يرجعون إلى الله ولا يحاسبون على أعمالهم.

ما هذا إلا بشرٌ مثلكم:

ترد هذا العبارة على سبيل التعريض بسيدنا نوح عليه السلام: ﴿ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّوَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ مَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهِدَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴾^(٤).

(١) سورة المؤمنون، الآية: ١١٥.

(٢) الكشاف: ١٦٢ / ٣، وينظر: صفوة التفسير: ٢ / ٣٢٢.

(٣) ينظر: في ظلال القرآن: ٥٠ / ٦.

(٤) سورة المؤمنون، الآية: ٢٤، وينظر: سورة هود، الآية: ٢٧.

وهذه قوله الكبراء من القوم يطلقونها من هذه الزاوية الضيقة ﴿مَا كُنَّا إِلَّا بَشَرًا مِّثْلُكُمْ﴾^(١) واسلوب القصر بالنفي والاستثناء يؤكد تلك النظرة الضيقة التي ينظرون منها، فهم ينظرون إلى شخص النبي بوصفه رجلاً لا يفترق عنهم بشيء بقصر (الموصوف: النبي الرسول) على (صفة: البشرية) فحسب، دونما نظر إلى ما يدعوهم إليه من دعوة كريمة عظيمة مجردة عن الأشخاص والذوات، فالرسول في نظرهم بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم ﴿أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ ، أي: " يطلب الفضل عليكم ويرأسكم " ^(٢) وأنتم أنتم فلا تخلوه وشأنه ولا تهملوا أمره حتى يستفحل خطبه ﴿وَكَلَّمَ شَاةَ اللَّهِ﴾ إرسال الرسول ﴿لَأَنْزِلَ عَلَيْكَ﴾ أي رُسلاً منهم ﴿مَّا سَمِعْنَا بِكَ﴾ أي بإرسال الرسول من البشر إلى البشر ﴿فِي مَآبِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ يدل على فرط جهلهم بأحوال الأمم الماضية، فإن إرسال الرسل من البشر كان مشهوراً معهوداً معلوماً، وعلى قوة عنادهم بحيث أعماهم وجعلهم يعارضون ما علموا بوجوده ^(٣) فهو الكذب والعناد والمكابرة، وإلا فإن إرسال الرسل من البشر إلى البشر لا من الملائكة هو رحمة من الله ورعايته بالبشر، فضلاً عن تكرمهم، فالنبي البشر هو من جنسهم وطبيعتهم يحسن إحساسهم ويشعر شعورهم، يالفهم ويألفونه.. فهو أقدر على إبلاغهم الرسالة بكل تكاليفها من غيره، كالملائكة، كما يقترحون، فالملائكة جنس من غير جنسهم، وطبيعة من غير طبيعتهم، فلا يألفونهم ولا يذسجون معهم كالرسل من البشر، ولكنها المكابرة التي يتوارى معنى آخر يفهم عبراتهم ﴿مَا كُنَّا إِلَّا بَشَرًا مِّثْلُكُمْ﴾ على سبيل التعريض " بأنهم أحق منه بالنبوة، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم، فقالوا: هب أنك واحد من الملائكة وموازٍ لهم في المنزلة، فما جعلك أحق منهم بها ؟ " ^(٤) ويقوي هذا المعنى التعريضي قولهم: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ﴾ ، بالنبوة التي هم أحق بها منه كما يزعمون لأنهم يملكون الجاه والرياسة والأمال والقوة.. وهو ذات المعنى الذي قصده الكافرون والمشركون على عهد الرسول ﷺ بقولهم الذي حكاه القرآن الكريم ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ ^(٥) فهو لاء كلونك يحسبون بحساب المادة والتجارة والقوة، وينظرون بذواتهم الصغيرة تلك النظرة الضيقة التي تحجب عنهم جوهر الرسالة

(١) الكشف: ١٤٤ / ٣.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢٤ / ٦.

(٣) المثل السائر: ٧٢ / ٣. وينظر: الفوائد المشوق إلى علوم القرآن وعلم البيان، ص ١٣٤. وينظر: علم البيان، د. عبد العزيز عتيق، ص ٢٢٠.

(٤) سورة الزخرف، الآية: ٣١.

وطبيعة الذبوة وأهدافها التي تتعيا إصلاحهم وإبراز إنسانيتهم المطموسة " فما كانوا إذن ليدركوا طبيعتها ولا ليروا حقيقتها، وذواتهم الصغيرة الضئيلة تدجب عنهم جوهرها، وتعمي عليهم عنصرها، وتقف حائلاً بين قلوبهم وبينها، وإذا القضية كلها في نظرهم قضية رجل منهم لا يفترق في شيء عنهم، يُريد أن يتفضلَ عليهم، وأن يجعل لنفسه منزلة فوق منزلتهم " (١).

أولوا الأيدي والأبصار:

تتواشج الكناية والتعريض في تركيب واحد، نلاحظ ذلك في وصف الله ﷻ لأنبيائه: إبراهيم وإسحاق ويعقوب (عليهم السلام) بأنهم: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ في قوله ﷻ: ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدًا إِبْرَاهِيمَ وَأِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ (٢). قال الزمخشري في قوله - تعالى -: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾: " لما كانت أكثر الأعمال تباشر بالأيدي غلبت، فقليل في كل عمل هذا مما عملت أيديهم، وإن كان عملاً لا يتأتى فيه المباشرة بالأيدي، وعلى ذلك ورد قوله ﷻ: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ يريد: أولي الأعمال والفكر، كأن الذين لا يعملون أعمال الآخرة، ولا يجاهدون في الله، ولا يفكرون أفكار ذوي الديانات ولا يستبصرون في حكم المرضى الذين لا يقدرّون على أعمال جوارحهم والسلوبي العقول الذين لا استبصار بهم. وفيه تعريض بكل من لم يكن من عمال الله، ولا من المستبصرين في دين الله، وتوبيخ على تركهم المجاهدة والتأمل مع كونهم متمكّنين منهما " (٣). وبذلك يكون التعبير القرآني: ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ كناية عن العمل الصالح بالأيدي الذي هو مصدر قوة لصاحبه، فضلاً عن العمل الصالح بالنظر الصائب والحكمة والفكر السديد بالأبصار، وكلا المعنيين متصل بالآخر ومنبثق عنه ويكمّله، فهو المعنى الشامل للعمل الصالح المستقر في النفس مشاعر وأفكاراً ومن ثم يتجسد في الواقع حركةً وبناءً، وبذلك يكون مظهراً من مظاهر القوة والبناء، كما تلمح الكناية إلى ذلك بالأيدي والأبصار، لذلك يجعلها القرآن نعمة تستحق الذكر الحسن والثواب الكريم.

ومن جانب آخر يمكن عدّ التعبير ﴿أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ كناية تعريضية تلوح بمعناها التعريضي من بعيد، فضلاً عن معناها الظاهر المعلوم. المعنى البعيد تعريض

(١) في ظلال القرآن: ٦ / ٢٤.

(٢) سورة ص، الآية: ٤٥.

(٣) الكشف: ٤ / ٧٦-٧٧.

بالذي لا يعمل صالحاً فهو كالذي لا يد له، وبالذي لا يفكر تفكيراً سليماً صانئاً فهو كالذي لا عقل له ولا نظر (١)، فهو أعمى القلب والبصيرة لا يتفكر ولا يتدبر لأنه يفقد الإيمان بالله الذي يبعث قوى النفس على التبصر الذي يوجهه إلى العمل الصالح، وفي ذلك تقابل ضمني بين الإيمان بوصفه معلماً من معالم القوة والبناء، وبين الكفر الذي هو ضعف وانحلال وفساد للانسان والحياة.

والذين إذا ذُكِّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صنماً وعمياناً:

يُقدم القرآن نموذجاً من الذين لا يسمعون سماع الهدى والإيمان ولا يبصرون بصر الهداية على سبيل التعريض، بهذه الآية التي يسجل بها سمة من سمات عبد الرحمن الذي إذا ذُكِّروا بآيات ربهم حرصوا على استماعها بأذان واعية وعيون راعية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٢).

فهذه سمة من سمات عباد الرحمن التي ذكرها السياق (٣)، فهم يتلقون آيات الله بالفهم والاعتبار، فيخرون لله من غير صمم وعمى، قال الزمخشري "﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا﴾ ليس بنفي للخرور، وإنما هو إثبات له، ونفي للصمم والعمى، والمعنى: أنهم إذا ذُكِّروا بها أكبوا عليها حرصاً على استماعها، وأقبلوا على المذكر بها وهم في إكبابهم عليها، سامعون بأذان واعية، مبصرون بعيون راعية، لا كالذين يذُكِّرون بها فتراهم مكبين عليها مقبلين على من يذكر بها، مظهرين الحرص الشديد على استماعهم، وهم كالصم العميان حيث لا يعونها ولا يتبصرون ما فيها كالمنافقين وأشباههم" (٤).

ودُعِدَت الآية كناية تعريضية تتجاوز معناها الظاهر المعلوم إلى ما تلوح به من معنى تعريضي يستهدف المشركين الذين يتكبرون على آياتهم وأباطيلهم دون إدراك أو تفكير، فهم صم وعميان لا يسمعون ولا يبصرون، وإنما يتبعون الظن وما تهوى الأنفس (٥)، وفي الكناية التعريضية تصوير لحركة الإنكباب على الوجه بلا سمع ولا بصر حركة تشير إلى معناها، ويتمثل في الجهل والتعصب الأعمى لما يتكبرون عليه على خلاف عباد الرحمن الذين يدركون إدراكاً واعياً بصيراً ما في آيات الله من صدق فيؤمنون إيماناً واعياً

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ١٠٣ / ٧.

(٢) سورة الفرقان: ٧٣.

(٣) ينظر: الآيات: ٦٣ - ٧٤.

(٤) الكشاف: ٢٣٣ / ٣.

(٥) ينظر: سورة النجم، الآية: ٢٣.

بصيراً، لا تعصياً أعمى ولا انكباباً على الوجوه، وإنما يؤمنون إيمان الاعراف المدرك البصير^(١). ومن خلال الكناية التعريضية يتقابل الفريقان على سبيل التضاد ليتجلى حال الفريقين: المشركين والمؤمنين، فيتعمق المعنى في ذهن المتلقي وحده، بين حال المؤمنين في صورتهم الوضيئة: إيماناً وإدراكاً ومعرفة.. وبين حال المشركين المعرض بهم في صورتهم المظلمة: غمياً وصماً وجهلاً.. فهما صورتان متضادتان تجلي عالَمين مختلفين.

وما هي من الظالمين ببعيد:

ترد هذه الكناية التعريضية في سياق تصوير العذاب الذي حلّ بقوم لوط في قوله - تعالى -: ﴿فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّن سَجَلٍ مَّنضُودٍ ﴿٢﴾ مُسَوِّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾^(٢)

وهي صورة مروعة من العذاب. والمروي في التفسير "أن جبريل عليه السلام قلع المدائن بيده بالقرة المودعة له، في صورة بركان هزّ المدائن وقلعها من محلها وطيرها إلى ارتفاع بقدر ما شاء الله، فقلبها من فوق وحطها في محلها فكان ما كان"^(٣) وفوق هذا العذاب المروع الأليم أمطر الله عليهم حجارة من سجيل منضود، وذلك زيادة في تفضيع حالهم^(٤) وتحقير شأنهم

﴿وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ قيل: "الضمير للقرى، أي هي قريبة من ظالمي مكة يمزون بها في مسايرهم حيث جريشيء بعيد"^(٥) فهي قريبة في مشهدها الذي يحكي العذاب الأليم الذي حلّ بقوم لوط، وفي عذابهم آيات للمعتبرين الذين يخافون العذاب الأليم كما قال - تعالى - في موضع آخر تعقيباً على مصرع قوم لوط: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦) وإنما ليسبيل مُقِيمٍ ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٦) ولكن الظالمين لا يعتبرون بمصارع الغابرين.

(١) ينظر: في ظلال القرآن: ٦ / ١٨٦، ١٨٧.

(٢) سورة هود، الآيات: ٨٢، ٨٣، سجيل: حجارة من طين. ومسؤمة: معلمة. ينظر: تفسير الجلالين، ص ٢٠٣.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٤ / ٣٢٤. وينظر: الكشف: ٢ / ٣٢٥.

(٤) ينظر: مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٤ / ٣٢٤.

(٥) الكشف: ٢ / ٣٢٥.

(٦) سورة الحجر، الآيات: ٧٥، ٧٧. وينظر: سورة الذاريات، الآية: ٣٧.

ويفهم التعبير القرآني: ﴿وَمَا مِنْ مِنَ الظَّالِمِينَ يَبْعِدُ﴾ على أنه كناية تعريضية تلوح بمعناها التعريضي الذي يستهدف الظالمين ويؤوِّدهم ويهدِّدهم بعذاب أليم بنيس كعذاب قوم لوط، فكلاهما ظالم يستحق العذاب، وسنة الله لا تحابي أحداً، فهي سنة لا تبدل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ^(١)، وإن اختلف نوع العذاب وشكله الذي يحل بالظالمين.

وكثير من نبي قتل معه ربيون كثير لما وهنوا لما أصابهم..:

يعرض القرآن بالمسلمين المقاتلين في معركة أخذ بما أصابهم من الوهن والاندسار عند الإرجاف بقتل رسول الله ﷺ ويضعفهم في مجاهدة المشركين، وذلك في قوله - تعالى -: ﴿وَكَايْنِ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ آلَا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ ﴿فَقَالَتْ لَهُمْ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

والمعنى الظاهر للآية كما جاء في التفسير: "وكثير من نبي قاتل وجاهد وحارب الكفار معه ربيون أي أناس علماء زهاد أتقياء منسوبون إلى ربهم نسبة الاختصاص والإخلاص، أو قاتل معه جمع كثير من أتباعه، وأصيبوا في سبيل الله بجراحات ومصائب من قتل الآباء والأولاد والحواشي والتهاب الأموال" ﴿فَمَا وَهَرُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وما حصل لهم الفتور في الجهاد ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ في الدين ولا في مقابلة العدو ﴿وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ وما خضعوا لهم، والله أحبهم لأنهم كانوا صابرين على الأذى في سبيل الله ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الضَّعِيفِينَ﴾^(٣).

وما كان قولهم مع الجهاد في سبيل الله وقبول مصائبه وجراحاته ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ آلَا﴾ هذا القول وهو إضافة الذنوب والإسراف إلى أنفسهم مع كونهم رباتين هضماً لها واستقصاراً والدعاء بالاستغفار منها مقدماً على طلب تثبيت الأقدام في مواطن الحرب والنصرة على العدو وليكون طلبهم إلى ربهم عن زكاء وطهارة وخضوع أقرب إلى الاستجابة ﴿فَقَالَتْ لَهُمْ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا﴾ من النصرة والغنيمة والعز وطيب الذكر. وخص ثواب

(١) ينظر: التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، ص ٢٧٥.

(٢) سورة آل عمران، الآيات: ١٤٦-١٤٨.

(٣) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٢ / ٢٧٠-٢٧١، وينظر: الكشاف: ١ / ٤٦٩.

الآخرة بالحدس دلالة على فضله وتقدمه وأنه هو المعتد به عنده " (١) يجزي به عباده المؤمنين الصابرين.

غير أن الآية الكريمة: ﴿وَكَايْنٍ مِّنْ نَّحْيٍ قَتَلَ مَعَهُ رِيشُونَ كَبِيرٌ﴾ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضَعُفُوا وما استَكاثُوا والله يُحِبُّ الصَّادِقِينَ ﴿﴾ تفهم على أنها كناية تعريضية تدطوي على معنى يعرض بالمتهمين من أرض المعركة في أحد بسبب الضعف الذي أصابهم في مجاهدة المشركين وانكسارهم واستكانتهم للمنافقين المرتدّين يقتل رسول الله ﷺ، قال الزمخشري: " وهذا تعرض بما أصابهم من الوهن والانتكسار عند الارجاف بقتل رسول الله ﷺ وبضعفهم عند ذلك عن مجاهدة المشركين واستكانتهم لهم " (٢) والتعرض بالمسلمين المنهزمين الذي يبين ضعفهم واستكانتهم ذو بعد تربوي نفسي يهدف إلى بناء تلك النفوس الضعيفة الإيمان من خلال كشف ضعفها لتجاوزها ، فما ينبغي للنفوس المؤمنة المتصلة بالله أن تضعف وتستكين في مجاهدة الكافرين، والله مولاها وناصرها وهو خير الناصرين.

وَأَنَا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ:

ترد هذه الكناية العريضية في قوله - تعالى -: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْلَىٰ بِكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿﴾ (٣).

ثمّة نلاحظ الآية تأمر الرسول ﷺ بتوجيه سؤال إلى المشركين ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ﴾ ثم أمره بأن يتولى الإجابة والإقرار عنهم بقوله: يرزقكم الله. وفي توجيه السؤال من الرسول ﷺ ثم الإجابة عنه بدلاً من المشركين " إشعار بأنهم مقرون به بقلوبهم، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به، لأن الذي تمكّن في صدورهم من العناد وحبّ الشرك قد أجم أفواههم عن النطق بالحق مع علمهم بصحته، ولأنهم إن تفوّوا بأن الله رازقهم: لزمهم أن يقال لهم: فما بالكم لا تعبّدون من يرزقكم وتوثرون عليه من لا يقدر على الرزق" (٤)، وفي ذلك تبيّحت للمشركين والزام بالحجة الواضحة التي لا تحتاج إلى البيان.

ومن ثم تأتي الكناية التعريضية بعد إلزامهم بالحجة والجامهم بها ﴿وَأَنَا أَوْلَىٰ بِكُمْ لَعَلَّ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ والمعنى: " وإن أحد الفريقين من الذين يوحشون الرازق من

(١) الكشف: ١ / ٤٦٩.

(٢) الكشف: ١ / ٤٦٩.

(٣) سورة سباء الآية: ٢٤.

(٤) الكشف: ٣ / ٤٥٨.

السموات والأرض بالعبادة ومن الذين يشركون به الجماد الذي لا يوصف بالقدرة، لعلى أحد الأمرين من الهدى والضلال" (١). وليس في العبارة القرآنية إيهام بعدما ألزمهم الحجة التي تقرّ بها قلوبهم، وبعدها قدم من التقرير التليغ بما فيه من دلالة واضحة على من هو من الفريقين على الهدى ومن هو في الضلال المبين، ولكنه "التعريض أفضل بالمجادل إلى الغرض، واهجم به على الغاية، مع قلّة شعب الخصم وفلّ شوكته بالهويّتنا. ونحوه قول الرجل لصاحبه: علم الله الصادق مني ومثلك، وإن أحننا لكاذب" (٢). فالكناية التعريضية تهدف إلى تبكيّتهم وتسفيه ما يعيدون بالأسلوب الهادي الذي يأخذ بخناقهم، وإلا فإن الهدى واضح بيّن، وصاحبه على الحق مستعلٍ والضلال واضح بيّن، وصاحبه كأنه منغمس في ظلام، كما صور ذلك الحرفان، "على وفي ﴿لَمَّا هَدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾" لأن صاحب الحق كأنه مستعلٍ على فرس جواد بركضه حيث يشاء، والضلّال كأنه منغمس في ظلام مرتبك فيه لا يدري أين يتوجه" (٣). ففي الحرفين اخراج للمعنى في صورة تشخيصية حيوية مؤثرة تمنحنا دلالة مصوّرة، نرى فيها الرسول ﷺ والمؤمنين على الهداية، في حين إنّ المشركين المجادلين في الضلال، وفي ذلك تقرّيب معنى الحق وأصحابه، وتقرّيب معنى الكفر والشرك وأصحابه، فصاحب الحق لظهور حجّته وقوة إيمانه وتمكّنه من دينه كأنه مستعلٍ ظهر جواد يهديه كيف يشاء، و(على) دالة على الاستعلاء موحية بهذا المعنى، أما أصحاب الباطل المعرض بهم، فهم لشركهم وكفرهم ومكابرتهم كأنهم منغمسون في ظلمة ليس فيها بصيص من نور، و(في) الدالة على الظرفية تدل على هذا الانغماس في ظلمات الضلال (٤).

(١) المصدر نفسه: ٤٥٨ / ٣.

(٢) الكشف: ٤٥٩ / ٣.

(٣) المصدر نفسه: ٤٥٩ / ٣. وينظر: الاستعارة في القرآن الكريم ١ ص ٩٨.

(٤) ينظر: الكشف: ٤٥٩ / ٣. والبرهان في علوم القرآن: ٣٠٣ / ٢. وينظر: نظرية الحروف العاملة ومبناها وطبيعة استعمالها القرآني بلاغياً، هادي عطية مطر الهاللي، ص ١٦٨.

(*) هو حبيب بن إسرائيل النجار (صاحب يس)، ينظر: الكشف: ٧ / ٤. وتفسير الجلالين، ص ٥٨٣.

ومالي لا أعبدُ الذي فطرني وإليه ترجعون؛

يعرض القرآن بالمشركون على لسان الرجل الذي جاء من أقصى المدينة يسعى^(١)

وذلك في قوله - تعالى - ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى ﴾ قَالَ يَتَقَوَّمُ **أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** ﴿ **أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَوْا أَجْرًا** وَهُمْ مُتَعَدُّونَ ﴾ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ **الَّذِي فَطَرَنِي** وَإِلَيْهِ **تُرْجَعُونَ** ﴿ **أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً** إِنْ يُرِدِ **الرَّحْمَنُ** بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي **شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا** وَلَا يُفَعِّدُونِ ﴾ **إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالِي** مُبِينٌ ﴿ **إِنِّي** ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾^(٢)

والمعنى الظاهر لهذه الآيات هو: ﴿ وَجَاءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ ﴾ أي من أبعد مواضعها

﴿ رَجُلٌ ﴾ وهو حبيب ﴿ يَسْعَى ﴾ أي يسرع في مشيه حرصاً على نصيح قومه ﴿ قَالَ يَتَقَوَّمُ **أَتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ** ﴾ **أَتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْتَلْكَوْا أَجْرًا** وَهُمْ مُتَعَدُّونَ ﴾ أي ثابتون على الحق والاهتداء ﴿ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ **الَّذِي فَطَرَنِي** ﴾ تَلَطَّفَ في إرشاد قومه بإيراد الكلام في معرض المناصحة ﴿ **وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ** ﴾ مبالغة في تهديدهم بتخويفهم من الله الذي يرجعون إليه وهو شديد العقاب ﴿ **أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً** إِنْ يُرِدِ **الرَّحْمَنُ** بِضُرٍّ لَا تُغْنِي عَنِّي **شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا** وَلَا يُفَعِّدُونِ ﴾ **إِنِّي إِذَا لَفِيَ ضَلَالِي** ﴾ أي إذا اتخذت من دونه إلهة ﴿ **لَفِيَ ضَلَالِي مُبِينٌ** ﴾ أي واضح فإن إشاراك مالا يحصل منه خير ولا دفع شر ضلال ﴿ **إِنِّي** ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ ﴾ أي فاسمعوا قولِي فَإِنِّي أعلن ذلك ولا أبالي بأي حادث هنالك " (٣)

وقوله - تعالى - ﴿ وَمَالِي لَا أَعْبُدُ **الَّذِي فَطَرَنِي** وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ ينطوي على معنى

تعريض^(٤) فضلاً عما قرره من معنى قريب، فهو تعريض بقومه، والمراد: وما لكم لا تعبدون الذي فطركم^(٥)، ولولا التعريض لكان المناسب أن يقال: الذي فطرني وإليه أرجع^(٦)، فهو يعرض بقومه وبما يعبدون من دون الله وما يقوي التعريض ويجليه قوله بعد ذلك، فقد ساقه ذلك المساق: ﴿ **أَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ إِلَهَةً** ﴾، والمراد: أنتخذون من دونه إلهة " (٦) إلى أن قال: ﴿ **ءَامَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ** ﴾ دون (ربي) و (فاسمعوه)^(٧)

(١) سورة يس، الآيات: ٢٠ - ٢٥.

(٢) مواهب الرحمن في تفسير القرآن: ٤٣٣ / ٦ - ٤٣٤.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٢ / ٢، والاتقان في علوم القرآن: ١٢٨ / ٣.

(٤) ينظر: الكشف: ٨ / ٤، والبرهان في علوم القرآن: ٣١٢ / ٢.

(٥) ينظر: الكشف: ٨ / ٤، والبرهان في علوم القرآن: ٣١٢ / ٢.

(٦) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٢ / ٢.

(٧) ينظر: المصدر نفسه والمكان نفسه.

وبذلك يتجلى المعنى التعريضي بهم وبآلئهم، ينال منهم بطريق خفي إذ يسفّه ما هم فيه حال كونهم ضالّين عن الصراط المستقيم لا معذّل عنه، فهم يعبدون من لا تصح له العبادة، لأنهم عطّلوا عقولهم وقلوبهم، فيعبدون ما لا يضرّ ولا ينفع، ولا تغنّ شفاعتهم شيئاً، ولم يمتكنوا من أن يكونوا شفعاء عن الله، ولم يقدروا على انقاذهم، فهم في عبادتهم في ضلال بين لا يخفى على ذي عقل وتمييز^(١)، فالتعريض يكشف عن حالهم بعمق، ويتّال منهم بهذه الطريقة التعريضية اللطيفة، إذ سلك المتكلم كلامه في معرض المناصحة لنفسه وهو يريد مناصحتهم ليتلطّف بهم ويداريهم، فهو يتضمّن اعلامهم على صورة لا تقضي مواجهتهم بالخطاب المنكر، وكلّنه لم يعنهم، وبذلك يكون المعنى أدعى للتأثير في أنفسهم والقبول له، فضلاً عن أن هذا التعريض يدل على محاسن أخلاق المتكلم وتواضعه حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لنفسه.. وفي ذلك تعليم في الخطاب للذين يعقلون^(٢).

لا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا أَجْرَمْنَا:

ويقهم التعريض بالكافرين من هذه الآية كالأية السابقة^(٣) وهي قوله - تعالى -: ﴿ قُلْ لَا تُسْئَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نَسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾^(٤)

فلولا القصد بالآية التعريض بحال الكافرين وما هم عليه من إجرام في أعمالهم من كفر ومعاص، لكان حق الحال من حيث الظاهر أن يُقال: (لا تسألون عما عملنا ولا نسأل عما تجرمون)^(٥) ولمكنه أسند (الإجرام) إلى المتكلم، والعمل إلى المخاطبين، على سبيل التعريض بهم، فيكون التعريض "أدخل في الإنصاف وأبلغ"^(٦) لأنه يحقق المقصود على سبيل التلطّف^(٧) بهم، وهو التأثير في أنفسهم لقبول ما تهدف إليه الآية في استدراجهم إلى الإذعان والتسليم، فالتعريض يكشف عن حالهم وما هم فيه من إجرام وتنكّب عن الصراط المستقيم، وينال منهم في صورة خفية لطيفة، فضلاً عما يدل عليه من محاسن أخلاق المتكلم في الدعوة والخطاب وهو يواجه النفوس المجرمة للكفر والمعاصي والآثام فيتلطّف معها

(١) ينظر: الكشف: ٨ / ٤.

(٢) ينظر: الكشف: ٨ / ٤، والبرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢، والاتقان في علوم القرآن: ١٤٨ / ٣.

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢.

(٤) سورة سبأ، الآية: ٢٥.

(٥) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢.

(٦) الكشف: ٤٥٩ / ٣.

(٧) ينظر: البرهان في علوم القرآن: ٣١٣ / ٢.

هذا التلطف لعلها تتأثر وتستجيب لما يدعوهم إليه من خير، فتقلع عما هي فيه من إجرام وأثام.

لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ:

ورد هذا التعبير في المثل القرآني، وهو قوله - تعالى - ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نُضَرُّهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(١)

وبنية هذا المثل القرآني قاذمة على التصوير المجازي في ذسبة الخشوع والتصدع والخشية إلى الجبل الأصم، "وليس من شأن الجبل أن يخشع ولا أن يخشى والخشوع والخشية، كلاهما من أفعال القلوب التي لا تصدر عن جماد، إلا أن يكون ذلك من صنع البيان إذ يبت الحياة في الصخر الأصم"^(٢)، والمعنى "أن الجبل لو كان مما يعي القرآن، ويعرف البيان، لخشع في ساعه، ولتصدع من عظم شأنه على غلظ إجرامه، وخشونة أكنافه، فالإنسان أخف بذلك منه، إذ كان واعياً لقوارعه، وعالماً بصوادعه"^(٣) وفي ذلك بيان منزلة القرآن وعظمته، وشدة تأثيره في النفوس^(٤).

غير أن هذا التعبير القرآني يمكن عده كناية تعريضية بالإنسان الذي لا يخشى ولا يخشع، وقد كشف الزمخشري عن معناها بقوله: "والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجه"^(٥).

فإذا كان الجبل الأصم يخشع ويتصدع من خشية الله، فمن باب أولى أن يخشى هذا الإنسان ويخشع وهو المعني بالخطاب، وبذلك تتجلى الدلالة النفسية التي يهدف القرآن إلى إحداثها في الإنسان المؤمن بخاصة وهو يتلقى آيات القرآن بالتدبر والتفكير فيتأثر ويستجيب خاشعاً من الله خاشعاً له.

ضَرَبَ الْمَثَلَ بِالْقُرْيَةِ الْأَمْنَةِ الْمُظْمَنَةِ:

- (١) سورة الحشر، الآية: ٢٦.
- (٢) الأعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق، ص ٢٠٩. وينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ١٦٠.
- (٣) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ٣٣٠. وينظر: مواهب الرحمن تفسير القرآن: ٣٠٥ / ٧.
- (٤) ينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٣٢٢، ٣٢٤.
- (٥) الكشف: ٥٠٦ / ٤.

يمكن أن يعدّ هذا المثل القرآني كسابقه كناية تعريضية، وهو قول - تعالى -: ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾^(١).

والمثل القرآني يجسد العذاب في صورة شبح مفزع مخيف مذاق، إذ تحول الجوع والخوف وهما معنويان إلى صورة حسية على شكل لباس يغشى أهل القرية بالاستعارة التصريحية ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ ﴾ وللشريف الرضي تحليل لهذه الاستعارة منه قوله: " وإنما قال - سبحانه -: ﴿ لِبَاسَ الْجُوعِ ﴾ ولم يقل: طعام الجوع والخوف، لأن المراد بذلك - والله أعلم - وصف ذلك الحال بالشمول لهم، والأشتمال عليهم، كاشتمال السلايس على الجلود، لأن ما يظهر منهم عن مضيق الجوع وأليم الخوف، من سوء الأحوال، وشحوب الألوان، وضوالة الأجسام، كاللباس الشامل لهم، والظاهر عليهم " (٢).

وقد أكد الزمخشري هذا بقوله: " " وأما اللباس فقد شبه به لاشتماله على اللابس: كما غشى الإنسان والنبس به من بعض الحوادث، وأما إيقاع الإذاعة على لباس الجوع والخوف، فإنه لما وقع عبارة عما يغشى منهما ويلابس، فكانه قيل: فأذاقه ما غشيه من الجوع والخوف " (٣). ففي المثل " تتداخل استجابات الحواس فتضاعف حس الجوع والخوف لهم ولذعه وتأثيره وتغلغله في النفوس " (٤). واستجابات الحواس تتمثل في استعارة (الذوق) إذ تعمق درجة الاحساس ووطأة العذاب الذي عانته هذه القرية " لأنه كما يجد الذائق مرارة الشيء فهم في الاستمرار كذلك الشدة في المذاقة " (٥).

وهذا العذاب الأليم الذي يغشى أهل القرية ويلابسهم كما جسده التصوير الاستعاري في المثل القرآني يمكن أن يفهم على أنه كناية تعريضية تستهدف في معناها التعريضي البعيد أهل مكة وما يصيبهم من العذاب الأليم، إذا هي كفرت بالله وأنعمه شأنها شأن الأمم السابقة، فضرب الله مثلاً على سبيل التعريض بمكة إنذاراً من مثل عاقبتها (٦). بل يمكن أن

(١) سورة النحل، الآية: ١١٢.

(٢) تلخيص البيان في مجازات القرآن، ص ١٩٧.

(٣) الكشف: ٤٩٨ / ٢.

(٤) في ظلال القرآن: ٢٨٨ / ٥.

(٥) النكت في إعجاز القرآن، ص ٩٠.

(٦) ينظر: الكشف: ٤٩٧ / ٢. وينظر: تفسير الجلالين، ص ٣٦٧. وينظر: الصورة الفنية في المثل القرآني، ص ٢٦٣.

يُفهم المثل القرآني على أنه كناية تعريضية شاملة في معناها تشمل مكة وأهلها، فضلاً عن كل قرية أنعم الله عليها فكفرت بالله وأبطرتها النعمة في كل زمان ومكان. وبذلك يبقى المثل القرآني يشع بمعناه التعريضي منذاراً بالنقمة والعذاب لكل قرية تكفر بالله وأنعمه. ومن خلال ما استعرضنا من الكنايات التعريضية يتبين أن لها سمات فنية فهي تمتاز بالإيجاز في التعبير عن المعاني التي تهدف إليها، فهي تحقق معناها أولاً، ثم تصل إلى الغرض أو المعنى البعيد الذي ترمي إليه عن طريق المفهوم من السياق وقرائن الأحوال من غير أن تذكر الطرف المقابل المعرض به، لذا دُعيت من الأساليب البيانية التي تفيض بالأدب القرآني بما تحتمه لغته المهدبة تقويماً للخلق، وصيانة للنفس الإنسانية من العبث والغبط والإثارة المؤذية، ولذلك - أيضاً - يكون وقع المعنى مؤثراً وأقدر على أحداث الاستجابة النفسية المناسبة التي يقصد القرآن إلى إحداثها في النفس الإنسانية المتلقية.